من وثب إلى صلاته صلحت أمور حياته

تأمل لفظ عائشة رضي الله عنها وهي تصف قيام النبي ﷺ لصلاة الفجر؛ يحكي وصفها الأسود بن يزيد وهي تقول: «كان النبي ﷺ ينام أول الليل، ويحيي آخره، ثم إن كانت له حاجة إلى أهله قضى حاجته، ثم ينام فإذا كان عند النداء الأول[(١)] قالت: وثب، ولا والله ما قالت: قام! فأفاض عليه الماء، وإن لم يكن جنباً توضأ وضوء الرجل للصلاة ثم صلى ركعتين»[(٢)].

فأمعن النظر في كلمة: «وثب» وكيف أن عائشة رضي الله عنها عدلت عن كلمة: «قام» إلى كلمة: «وثب» وكيف أن الأسود رحمه الله قد لفتت انتباهه هذه الكلمة، فصار يحكيها مقسماً عليها قائلاً: «قالت: وثب، ولا والله ما قالت: قام!».

وقارن هذه اللفظة بما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجب ربنا عز وجل من رجلين: رجلٍ ثار عن وطائه ولحافه، من بين أهله وحِبِّه**[(٣)] **إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا**

---

(١) المقصود بالنداء الأول هو أذان الصبح الذي بعد طلوع الفجر، ينظر: فتح الباري لابن رجب (٥/٣١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٧٣٩).

(٣) في بعض النسخ: «وحِبِّه» بالباء، وفي بعضها: «وحَيِّه» بالياء. ينظر: مسند الإمام أحمد، طبعة دار المنهاج، بإشراف الشيخ المحدث =

ملائكتي: انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه، من بين حِبه وأهله إلى صلاته؛ رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي...»(١).

فأمعن النظر في هذين اللفظين: «وثب، وثار» وما يحملان من معنى الانتهاضِ الفوري للصلاة، وسرعةِ المباعدةِ عن الفراش والمنام.

وفي ذلك سرٌّ بيَّنه ابن القيم فقال: «تأمل معنى «ثار» ولم يقل: قام؛ لأن القيام قد يقع بفتور؛ فأما الثوران فلا يكون إلا بإسراع؛ حذراً من فائتٍ مَّا»(٢).

فرحم الله امرَأً سمع النداء فلم يتوان، ولم يتراخ؛ بل ثار من فراشه، ووثب من منامه، مبادراً الصلاةَ؛ لم يصدَّه عن ذلك لذة نوم، ولا هَناءة فراش، ولا دِفء منام، ولا برودة جو، أولئك هم الموفقون.

وإن هذا القيام الفوري عند سماع النداء، ليست فائدته أداء الصلاة في وقتها مع الجماعة فحسب؛ بل إنه يربي الإنسان على أن يأخذ أموره في الحياة بقوة، وأن يبادر الفرصة، فلا يضيعها بالتسويف والتأجيل.

وفي هذا المعنى يقول الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقال له بعنوان: «لا تؤجل»:

«كان أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلما أيقظني لصلاة الصبح يقول لي: «لا

= أحمد معبد (٢/ ٩١٩ ـ ٩٢٠).

(١) أخرجه أحمد (٣٩٤٩)، وصحح الدارقطني وقفه كما في العلل (٥/ ٢٦٧).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٧٨).

تتراخَ، اقفز قفزاً» فأتراخى وأتكاسل، ثم أتناوم فلا أرد، أو أردّ ولا أقوم، حتى يمل فيدعني.

وأنا أعض أصابعي الآن ندماً؛ لأني لم أسمع هذه الوصية: «اقفز قفزاً» ولو أني سمعتها وعملت بها، أو لو أنه أجبرني عليها، لتغيرت حياتي ولما فشلت في إعداد هذا الحديث، ولكنت في دنياي وفي ديني خيراً مما أنا عليه اليوم.

وأنا ـ إلى الآن ـ كلما أردت أن أقوم في الصباح أحسّ هذه الكلمة، كلمة أبي تُدوِّي في أذني: «اقفز قفزاً قم إلى الصلاة؛ فالصلاة خير من النوم». ثم أسمع صوت الشيطان يقول لي: «نم دقيقة أخرى، فالوقت فسيح، والفراش دافئ والجو بارد».

ولا أزال بين داعي الواجب وداعي اللذة، أفكر في ثواب الصلاة فأتحفز للقيام، وأتصوّر لذة المنام، وبرد الماء فأسترخي وأتقلب من جنب إلى جنب، ولا تزال نفسي بينهما كنوّاس الساعة «الرقاص»، بين «قم، نم، قم، نم، قم، نم» حتى تدركني رحمة الله فأقفز، أو تطلع الشمس وتفوت الصلاة، وأقوم وقد مضى الوقت ودنا العمل، فآكل طعامي لقمة بالطول، ولقمة بالعرض، ولقمة تعترض في صدري فأغصّ بها، وألبس جورباً على الوجه، وجورباً على القفا، وأعقد العقدة مائلة، وأزرِّرُ زِرَّ القميص الأول في العروة الثانية، وأنسى ـ من عجلتي ـ الساعة أو النظارات، وأهرول في

الطريق؛ فأسيء هضمي، وأُتعب معدتي، وأُضحك الناسَ عليّ، وكل ذلك لأني أطعت الشيطان فلم أقفز قفزاً إلى صلاة الصبح»[(١)].

فما أعظم بركات الصلاة، وهنيئاً للمسارعين.

(١) مع الناس (ص٥٩).